نشأة الادب الصوفي:

ارتبط التصوف بالأدب شعرا ونثرا، حيث تنوعت أساليب الكتابة الصوفية وتطورت بين الشعر والنثر، مع تحول حاصل في آليات النوع الأدبي من حيث تشكيل رؤية جديدة للكتابة الأدبية، قادرة على الغوص في لباب المعنى، وجوهر المفاهيم، تجمع بين جمال الأسلوب، ونصوع الدلالة، وإصابة حقيقة المراد، مع الحفاظ على روح التجربة الصوفية الأصيلة، سواء أكان الكلام فيها عن المجاهدات النفسية أم الحديث عن الكشف والحقائق الظاهرة والباطنة، أو الإفصاح عن كرامات القوم وخوارقهم ، أو البوح بالشطحات التي تصل بفن التعبير الصوفي إلى أقصى رمزيته وإيحائية، كأنه جبل جليدي لا يُبْد منه إلا ربع حجمه.

في البدايات كان الاعتماد شبه كلي على الشعر، على اعتبار أنّه الشكل الأدبي الأنسب والأمثل لخوض التجربة الصوفية، ولكن أمام الصدمات والحواجز التي وقعت بين المتصوفة والناس من ناحية، وبينهم وبين السلطة من ناحية أخرى، تولدت عندهم قناعات مفادها :

- قصور الناس وعجزهم عن إدراك صنعتهم، أو تفهم فنّ ـهم واستيعاب طريقتهم عبر القوالب الشعرية، فما بين مكفر ومسفه ومكذب، وكان عليهم إيجاد حلول وبدائل كفيلة لإعادة الثقة بينهم وبين الناس.

- فشل المنظومة الشفهية في التواصل، والتوجه أكثر إلى تقييد الشفهي عبر المنظومة الكتابية " للخروج من ضيق العبارة التي يمكن ربطها بالشفهي والمنطوق، في حين يرتبط الاسترسال بالكتابة " ،كما وأن التدوين يتبعه اتساع في الرؤية.

- الكتابة تجنب الصوفي الصدام المباشر مع المتلقي والذي قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى ردة فعل عنيفة.

- عدم مقدرتهم عن التصريح بكامل الحقيقة التي يعيشونها في تجاربهم بال شعر، فيحس الصوفي أن قيد الوزن، والعروض، والقافية يأسره ويشد وثاقه، فتبادل الخطاب مع الله مثلاً " لا يستطيع فضاء القصيدة وطبيعة الشعر احتواءه "

فبحثوا -المتصوفة- عن شكل تعبيري أدبي آخر يحقق لهم التواصل أكثر مع الناس- وبشكل حميمي أكثر وفي نفس الوقت يتمتع بالمرونة الكافية التي يحتاجونها لنقل تجاربهم.

وفعلا تمكن المتصوفة من استغلال إفرازات الخطاب النثري، الذي يكشف عن إمكانات هائلة للتفاعل مع المتلقي، فـ " المتصوفة شأنهم شأن أصحاب الخطابات الأخرى كانوا يفضلون لو كان لخطاباتهم فعالية وسلطة وإحداث أثر، لكسب أكبر عدد ممكن من المتجاوبين، حتى وإن تظاهروا

بتوجههم إلى الخاصة من أهل المعرفة...حاول المتصوفة تفعيل العقد التواصلي، وبآليات تبدوا وكأنها تدخل ضمن إستراتيجية مدروسة ناتجة عن إدراك مقاصد المتلقين، ومحاولة التموقع ضمن منطلقات مشتركة بينهم تدور حول وظيفة تأثيرية تقوم على إثارة العواطف والانفعالات والخضوع لسلطة الحكي ومتعته "، وفي القرن السابع والثامن الهجري لبس التصوف رداء (الطرق الصوفية) التي انصرف جهد زعمائها وشيوخها إلى الشطحات والترهات الغيبية.

من خلال ما سبق يمكن تقسيم أطوار التصوف إلى عدة مراحل أساسية يمكن إجمالها في المراحل التالية:

_ **مرحلة الزهد:** انطلق التصوف الإسلامي مع مجموعة من الزهاد والأتقياء الورعين الذين كانوا يعتكفون في المساجد، يقضون حياتهم في عبادة الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ...

_ **مرحلة التصوف السني:** الذي لم يظهر إلا بعد مرحلة الزهد والتقشف في الدنيا واختيار حياة الورع والتقوى والإخلاص في الاعتكاف والإكثار من الخلوة و التخلي عن الدنيا واستشراف الآخرة. وسمي بالتصوف السني ؛ لأنه كان مبنيا على الشريعة الإسلامية وأحكام الشرع الرباني، ومن أهم المتصوفة السنيين نذكر: الحسن البصري الذي عرف بالخوف الصوفي، والمحاسبي الذي أوجد أصول التصوف والمجاهدة، والقشيري المعروف بالرسالة القشيرية، والغزالي صاحب كتاب " منقذ الضلال" والذي يعد من السباقين إلى التوفيق بين الظاهر والباطن على ضوء الشريعة الإسلامية، ورابعة العدوية المعروفة بالمحبة الإلهية، والجنيد ، وأبو نصر السراج، وابن المبارك ، ومالك بن دينار، وعبد القادر الجيلاني، وأحمد البدوي، وأحمد الرفاعي، وابن عبدك....

_ **مرحلة التصوف الفلسفي:** حيث تأثر التصوف الإسلامي بالمؤثرات الخارجية والمؤثرات الداخلية على حد سواء كما نجد ذلك واضحا لدى الحلاج صاحب نظرية الحلول، والبسطامي صاحب نظرية الفناء، وابن عربي صاحب فكرة وحدة الوجود، ناهيك عن شطحات غريبة في تصوف ابن الفارض والشريف الرضي وجلال الدين الرومي ونور الدين العطار والشبلي وذي النون المصري والسهروردي .هذه النظريات الصوفية هي التي ستدفع المستشرقين لربط التصوف بالمعتقدات المسيحية واليهودية والعقيدة البوذية والنرڤانا الهندية والتصوف الفارسي.

أما عن **مراحل تطور الأدب الصوفي** فيمكن تقسيمها أو اعتماد تقسيم أحمد أمين؛ الذي قسنه إلى **ثلاثة أطوار**:

" **الطور الأول** يبدأ من ظهور الإسلام وينتهي في أواسط القرن الثاني للهجرة؛ " وكل ما بين أيدينا منه طائفة كبيرة من الحكم والمواعظ الدينية والأخلاق تحث على كثير من الفضائل، وتدعو إلى

التسليم بأحكام الله ومقاديره، وإلى الزهد والتقشف وكثرة العبادة والورع، وعلى العموم تصور لنا عقيدة هذا العصر من البساطة والحيرة.

والطور الثاني يبدأ من أواسط القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع. وهنا يبدو ظهور آثار التلقيح بين الجنس العربي والأجناس الأخرى، وفيه يظهر اتساع أفق التفكير اللاهوتي، وتبدأ العقائد تستقر في النفوس على أثر نمو علم الكلام. وفيه يظهر عنصر جديد من الفلسفة. والأدب الصوفي في طوريه الأول والثاني أغلبه نثر، وإن ظهر الشعر قليلا في طوره الثاني. وفي الطور الثاني هذا يبدأ تكون الاصطلاحات الصوفية والشطحات.

أما **الطور الثالث** فيستمر حتى نهاية القرن السابع وأواسط القرن الثامن، وهو العصر الذهبي في الأدب الصوفي، غني في شعره، غني في فلسفته، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا ".

هذا باختصار قراءة في نشأة الأدب الصوفي وأهم المراحل التي مر" بها.

الإحالات: (المصادر والمراجع):